

تظاهرات الحياة المملوكية في رواية «السائرون نياماً» لسعد مكاوي (دراسة نقدية)

مريم رحمتي تركاشوند*

أستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة رازي

تاريخ استلام البحث: ١٣٩٦/١١/١٣ تاريخ قبول البحث: ١٣٩٧/٠٥/٣٠

الملخص

لقد برع "سعد مكاوي" في تصوير معاناة المجتمع المصري في العصر المملوكي وعكس مشاكله السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية في روايته المتميزة "السائرون نياماً" والتي يتطرق فيها إلى طبيعة الحياة البشرية آنذاك ويعالجها بشكل مفصل. هذا السرد التاريخي لاحتواءه على مادة تاريخية، يعرّف القارئ على تاريخ "مصر" في العصر المملوكي حتى يستوعب ما تحتويه الرواية ويجعل مخاطبيه يتأثرون بماضيهم حاثاً إياهم على المضي قدماً نحو التنمية و التطوير. من هذا المنطلق يرمي هذا المقال إلى دراسة استدعاء التاريخ في الرواية اعتماداً على المنهج التاريخي في النظرية مستخدماً الوصف والتحليل لمناقشة الموضوع هادفاً الكشف عن المعرفة التاريخية المكنونة فيها. من أهم النتائج التي توصلنا إليها في دراستنا هذه، أنّ الروائي سعد مكاوي يبحث في روايته عن سرّ تخلف المصريين وهزيمتهم من خلال فهم أسرار الهزائم الماضية ويعتقد أنّ مظاهر التخلف والاستبداد وتدني الأخلاق واختلال الموازين ضاربة جذورها في العصور التي عاشتها مصر في عهد المماليك وما يعرضه مكاوي عبر روايته من الظروف العامة السائدة على مصر في العهود السابقة خير شاهد على مصداقية ما ذهب إليه الراوي. زد على ذلك أنّ الكاتب- في روايته هذه- يزيح الستار عن استبداد بعض الحكام المصريين من جهة ووجود الفرقة والقطيعة بين أبناء الشعب المصري في مواجهة هذا الاستبداد والقضاء عليه من جهة أخرى حتى يعبر عن مأساة الواقع المصري الزاھن.

الكلمات الرئيسية: الرواية التاريخية؛ استحضار التاريخ؛ العصر المملوكي في مصر؛ "سعد مكاوي"؛ "السائرون نياماً".

١. المقدمة

يعدّ البحث التاريخي وخاصة النقد التاريخي من أهمّ مجالات البحث في العلوم الإنسانية لأنّ تحليل الأحداث التاريخية يعطينا كنزاً دفيناً من تاريخ المجتمعات البشرية وإمكانية الاستفادة من الإنجازات السابقة لبناء حاضر ومستقبل أفضل لأنفسنا. في عالمنا المعاصر، حاول كثير من الروائيين أن يكتبوا روايات تاريخية لإزاحة الستار عن صفحات التاريخ بطريقة فنية ولأنّ يستتروا أنفسهم خلف قناع التاريخ وحوادثه للتعبير عن تجاربهم وبثّ الأفكار وأمانهم بالصورة غير المباشرة.

إنّ رواية "الساترون نياما" من أبرز روايات العالم العربي التي كتبها الكاتب المصري "سعد مكاوي"؛ إنّها رواية تاريخية تمثّل تاريخ العصر المملوكي بأحداثه واختيرت ضمن قائمة أفضل رواية عربية وعرضت على شاشة التلفزيون المصري كمسلسل تلفزيوني اجتذب عدداً كبيراً من المشاهدين المعاصرين، لكن لم يعتن بها النقاد كما ينبغي لها، إذ أنّ الضروري أن تهتمّ دراسة شاملة بمعالجتها، لأنّ الرواية باستحضارها تاريخ العصر المملوكي، تقدّم فائدة تاريخية عن الأوضاع الرّاهنة في مصر. **يهدف هذا المقال إلى الكشف عن الزوايا الغامضة لاستحضار التراث في الرواية ويعبّر عن تلك المعرفة التاريخية المكونة فيها.**

ينتهج هذا المقال - لتأصيل قضايا البحث - المنهج التاريخي «الذي يقوم على دراسة الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للعصر الذي ينتمي إليه الأدب ويتخذ منها وسيلة أو طريقة لفهم الأدب، وتفسير خصائصه واستجلاء كوامنه، وغوامضه» (الكندي، ١٩٩٧: ٩٨) وبدراستنا أحداث الماضي وتفسيرها يمكننا التوصل إلى قوانين تساعدنا على تحليل أوضاع الحاضر وقد اعتمدنا الوصف والتحليل في عرض آراء المؤرخين والكتاب واستخلاص نتائج البحث مع الغور في قراءة الرواية. ونحاول الوقوف على المعرفة الروائية التي يسردها الروائي ومن القضايا التي يجب الإشارة إليها أنّ هذا البحث يستند إلى نظرية "هيبولت تين" في منهجه التاريخي الذي يعتقد بأنّ الأدب يفهم ويفسّر من خلال عدّة عناصر أهمّها البيئة والعصر (المصاورة، ٢٠١٠: ٢). إذن قسّمنا البحث إلى ثلاثة محاور رئيسية؛ أولاً نلقي نظرة عابرة على استحضار التاريخ في الرواية التاريخية وأهميتها ثمّ نتطرّق إلى البحث عن حياة "سعد مكاوي" وروايته الشهيرة "الساترون نياما" وفي النهاية نعالج موضوع استحضار التاريخ ومظهرات الحياة المملوكية في الرواية.

٢. أسئلة البحث وفرضياته

يرمي هذا المقال إلى الإجابة عن الأسئلة التالية

- ما هي الوظيفة المعرفية التي أخذتها رواية "السائرون نياماً" على عاتقها؟
- كيف تمكّنت الرواية من الربط بين مصر القديمة والحديثة من خلال عرضها للأحداث والشخصيات؟
- كيف تمظهرت الحياة المملوكية بما فيها من الظروف السياسية والاجتماعية والأخلاقية في الرواية؟
- والفرضية التي يدور حولها رحي هذا البحث هي أنّ الروائي استلهم مادّة روايته من الزمن الماضي لاكتساب وظيفة معرفية تاريخية حول العصر المملوكي. قد استلهم الروائي "سعد مكاوي" ممّا شاع في العصر المملوكي من الانهيار الخلقي والفاصل الطبقي بين مكوثات الشعب وظلم المماليك للريّة وما إلى ذلك من القضايا السائدة على الحياة المملوكية لإخراج روايته إلى نور الوجود.

٣. الدراسات السابقة

يجدر بنا القول إنّنا لم نجد -حسبما قرأنا وبجثنا عنه- دراسة أخلصت نفسها لدراسة رواية "سعد مكاوي" الفنية الشهيرة "السائرون نياماً" رغم أهميتها الواضحة، ويمكن القول بأنّها أصبحت مفقودة ومجهولة في عالمنا المعاصر، غير أنّ هناك بحثاً قليلاً اهتمّ أصحابها بالتعريف حول الكاتب المصريّ وروايته هذه؛ منها: بحث نشره "فؤاد دواره" في صفحتين، عنوانه «الورقة الأخيرة: السائرون نياماً»، فيه يشكو من التّقاد في البلاد العربيّة لعدم أكثراتهم ببعض الكتب الهامة؛ لأنّ رواية "السائرون نياماً" رغم أهميتها الواضحة وارتفاع مستواها الفنيّ لم يكتب عنها حتّى ناقد واحد ومقالة «السائرون نياماً من هم؟ وإلى أين تسيرون؟» التي كتبها "خيري دومة" وعالج فيها التقنيّات السردية كالتخصّيات والزمان والراوي واللغة السردية في هذه الرواية ويعتقد بأنّها لم تكن من صنع كاتب مبتدئ لا يجيد المادّة التي يكتب عنها. مقالة أخرى كتبها "مُجد جريل" حول حياة سعد الشخصية والعلمية، عنوانها «واحد من رواد القصّ العربيّ». كتب "عمرو خفاجي" أيضاً مقالاً عنوانه "السائرون نياماً" في صفحة، نشره في جريدة "الشروق"؛ إنّهُ يعتبر الرواية من الأعمال الرائدة في توظيف التّراث للإسقاط على الواقع. زد على ذلك أنّ هناك بعض دراسات حول استحضار التاريخ وتمثله في الرواية ك مقال عنوانه «استحضار التاريخ في الكتابة الروائية

لدى واسيني الأعرج من خلال نصّه (كتاب الأمير)» كتبه "فايد محمّد"، إنّه يشير إلى أنّ "واسيني الأعرج" من خلال روايته "كتاب الأمير" حاول أن يقدم سرداً جديداً ورواية تاريخية مختلفة عن الرواية التاريخية الكلاسيكية. مقال آخر كتبه "نعيم عموري" حول استحضار التراث في الرواية المعاصرة عنوانه «استدعاء التراث في رواية ثرثرة فوق النيل لنجيب محفوظ»، يشير الكاتب إلى أنّ نجيب محفوظ يستحضر لنا التاريخ الإسلامي أيام المماليك الذين حكموا مصر وفي موضع آخر يستحضر الفاطميين ويستدعي أحد حكامهم وهو المعزّ لدين الله الفاطمي. لكننا لم نعثر لحدّ الآن على دراسة تعالج مظهرات الحياة المملوكية واستحضار التاريخ في رواية "الساثرون نيماً" فأفردنا لها هذا المقال. إنّ دراسة هذا السرد الروائي ووظيفته المعرفيّة لم تستأثر بالعناية الواسعة التي تستحقّها، فهذا المقال يتابع البحث في دراسة المعرفة التاريخية التي تعالجها هذه الرواية.

٤. استحضار التاريخ في الرواية التاريخية

الرواية، ملحمة ذاتية (مرتاض، ١٩٩٨: ١٣)، هي في الصّورة العامّة، تمثيل للحياة والتّجربة واكتساب المعرفة، والمعرفة ضروريّة للكاتب لبناء القصة كما هي ضروريّة لفهم القارئ (زيتوني، ٢٠٠٢: ٩٩ و١٠٥-١٠٦). الحكمة أو المعرفة التي تعطينا القصة أو الرواية، تنشأ عن الحياة التي نعيشها وتفاعل معها.

هناك روايات عديدة في عالمنا الراهن، تنقسم بجانب موضوعها والهدف من كتابتها إلى روايات تاريخيّة، وتعليميّة، وفنيّة، وواقعيّة، وخياليّة، وبوليسيّة. لكن «تعدّ الرواية التاريخيّة أكثر أنواع الرواية رقيّاً، فهي تسمو بموضوعاتها لتحقيق أهداف ذات أهميّة بالغة، إذ تسعى لإحياء وبعث ماضٍ تليد لقراءة الحاضر والمستقبل» (بالنور، د. ت: ١). إنّ ما يهّمنا في الرواية التاريخية، ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة، بل الإيقاظ الشعوريّ للناس الذين برزوا في تلك الأحداث وما يهّمنا هو أن نعيش مرّة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماماً في الواقع التاريخي (لوكاش، ١٩٨٦: ٤٦) لأنّ الواقع هو امتداد للتاريخ بمختلف أشكاله وألوانه حتى وإن كانت المسافة الزمانيّة بينهما بعيدة (زباط، ٢٠١١: ١٤٣).

ظهر الاتجاه الروائي التاريخي على يد "جرجي زيدان"، فقد رأى هذا الكاتب أنّ كتب التاريخ تتّجه إلى المثقّفين وحدهم، إن لم تقتصر على المتخصّصين في التاريخ والمشتغلين بالحضارة؛ فأراد

أن يكسب للتاريخ أكبر عدد من القراء العاديين، فاختار له شكل الرواية التي تيسر قراءته وتجذب القراء إليه (هيكل، ١٩٩٤: ١٩٣-١٩٤). إذ أصبح جرجي زيدان رائد هذا الفنّ في العالم العربيّ وجاء بعده عدد كثير من الروائيين العرب الذين حرّروا هذا الفنّ من الوثيقة التاريخية ومنحوه بعداً حضارياً وإنسانياً. هناك منتجات متميّزة من الرواية التاريخية عند العرب المحدثين؛ لكن «تبقى رواية السائرون نياماً علامة بارزة في تاريخ الرواية المصرية عامة وتاريخ إبداع سعد مكاوي خاصّة» (غنيم، ٢٠١٢: ٧) حتى أشار "فؤاد دواره" إلى الفترة الزمانية والرقعة المكانيّة والشخصيات الشعبيّة والمملوكيّة في أقسام الرواية الثلاثة ويعتقد بأنّ «كل ذلك كان كفيلاً لو كرس له المؤلف مزيداً من الجهد والوقت، أن يحول كل قسم من أقسام الرواية الثلاثة إلى رواية قائمة بذاتها، فيضيف بذلك إلى أدبنا الروائي ثلاثية جديدة لا تقلّ بحال من النواحي الفنيّة والاجتماعيّة والتاريخيّة عن ثلاثيّة نجيب محفوظ الشهيرة» (دواره، ١٩٦٦: ١٣٦). إذن هذا المقال يعالج البحث حول محتوى هذه الرواية الشهيرة حتّى يستخرج منها تمظهرات الحياة المملوكية التي استحضرها الكاتب المصري ناقداً من خلالها أوضاع مصر الراهنة.

٥. سعد مكاوي

إنّ سعد مكاوي (١٣٣٥-١٤٠٥) صحفيّ مسرحيّ قاصّ في القرن العشرين، وُلد في قرية "الدلاتون" بمركز شبين الكوم بمصر، وبعد حصوله على الشهادة الثانوية، سافر إلى فرنسا لدراسة الطبّ، لكنّه تحوّل فيها إلى علم النفس، وعاد إلى وطنه فأكمل دراسته بقسم اللّغة الفرنسيّة. انضمّ في أوائل الأربعينات إلى أسرة تحرير جريدة "المصري" ثمّ مجلة "آخر ساعة" ثمّ جريدة "الشعب" ثمّ "الجمهورية" وفي أوائل الثمانينات عُيّن رئيساً للجنة القصّة بالمجلس الأعلى للثقافة وأحيل على التقاعد وهو يشغل رئيس هيئة المسرح (الجبوري، ٢٠٠٣، ج٣: ٣١). له إنتاجات أدبية كثيرة منها: "قافلة الحياة"، "نساء من خزف"، "قهوة المجاذيب"، "مخالب وأنياب"، "راهبة من الزمالك"، "الماء العكر"، "مجمع الشياطين"، "أبواب الليل"، "القمر المشويّ"، "رجل من طين"، "الرقص العشب الأخضر"، "الفجر يزور الحديقة"، "على حافة النهر الميت"، "الرجل والطريق"، "السائرون نياماً"، "الكرياج"، مسرحية "الميت الحي" و"الحلم يدخل القرية" و"الهدية"، كما ترجم بعض الكتب (المصدر السابق: ٣١) أشهر أعماله هي روايته الرائدة "السائرون نياماً" التي «بدأ سعد مكاوي نشرها في يناير ١٩٦٣ في جريدة "الجمهورية" لسان حال الثورة في ذلك الوقت، ثمّ ظهرت الرواية في كتاب لأوّل مرة في مايو عام ١٩٦٥» (غنيم، ٢٠١٢: ٧).

٦. المضمون السردّي للرواية «السائرون نياماً»

إنّ هذه الرواية تتشكّل من ثلاثة أقسام وأربعة وخمسين مشهداً: القسم الأوّل يسمّى "الطاووس" ويحتوي على عشرين مشهداً، القسم الثاني يسمّى "الطاعون" ويحتوي على أربعة عشر مشهداً والقسم الثالث يسمّى "الطاحون" وهو يحتوي على عشرين مشهداً. يتناول سعد مكاوي فيها، أحداث الأعوام الثلاثين الأخيرة من حكم المماليك (١٤٦٨-١٤٩٩).

تبدأ الرواية بوصف موكب السلطان "سيف الدين بلباي" واستيلائه على العرش وهو الذي حكم سنة واحدة، ثمّ جاء بعده "الظاهر تبرغا الرومي" الذي عزل بعد شهرين، ثمّ اعتلى العرش "الأشرف سيف الدين قايتباي" وحكم مدّة ثلاثين سنة وتدور أغلبية أحداث الرواية حوله، ثمّ جاء بعده "الناصر مُجّد بن قايتباي" الذي حكم سنة واحدة ووضع "الظاهر قانصوه" مكانه بمدّة ثلاثة أيام وبعد هذه الأيام القليلة، ارتقى "الناصر مُجّد بن قايتباي" مرّة ثانية على العرش وحكم سنة واحدة، ثمّ حكم بعده "الظاهر قانصوه" مدّة عامين وتنتهي الرواية بعزل هذا السلطان وتولّي "العادل طومان باي" مقاليد الحكم مكانه. يقوم الروائيّ بعرض الظروف الحاكمة في قصور هؤلاء المماليك في أبراج القلعة في القاهرة والشخصيّات الشعبيّة في أحياء القاهرة وصوامع متصوِّفها وقصور الطبقة البرجوازيّة (كالملتزم وحمزة وإدريس) وفلاحي قرية "ميت جهينة".

هناك شخصيات عديدة في هذه الرواية، أهمّها "بلباي"، و"الدوادار خيربك"، و"قايتباي"، و"قانصوه" من الشخصيات المملوكية في القاهرة، و"أيوب" وصبيه "يوسف" وزوجته "ست الكل" وصديقه "عيسى" و"خليل"، و"خالد" وأخته "عزة"، والشيخة "زليخة" حامية المجاذيب والغرباء... من الشخصيّات الشعبيّة في القاهرة، ثمّ "ملتزم"، و"إدريس"، و"حمزة" من الظالمين والقهارين على أهل القرى في قرية "ميت جهينة"، ثمّ "فاطمة" وأمّها "ست العيلة" وزوجها "غالب" وابنها "مُجّد"، و"محسنة" زوجة "عيسى" وابنتها "نور" من الفلاحين والفلاحات في تلك القرية. كما ركّز الكاتب على شخصيتين؛ إحداهما من معسكر المماليك، وهي شخصيّة "قايتباي"، والأخرى من معسكر الشعب، وهي شخصيّة "خالد". إنّ الكاتب بهذا السرد الروائيّ يريد أن يحرّض الشعب المصريّ الراهن للقيام أمام الاستبداد والخلّاص من الأزمت المبتلى بها. في الحقيقة، إنّ سعد مكاوي في هذا العمل الفنّي، أدّى مهمّته الرئيسيّة التي عدّها توفيق حكيم، مهمّة كلّ كاتب وهو إعانة الناس على اكتشاف الحقائق.

إنّ هذه الرواية تكون ملحمة مصعّرة عن تاريخ العصر المملوكي وليس هدف الراوي العرض التاريخي وإعطاء معرفة تاريخية عن هذه الحقبة الزمنية فحسب بل - إضافة إلى هذا - يقصد الراوي أن ينتقد انتقاداً لاذعاً من سلاطين مصر في العصر الراهن وحوادث روايته هذه تنطبق انطباقاً كثيراً على أوضاع الشعب المصري في القرن العشرين لأنّه يعتقد بأنّ سلاطين مصر في القرن العشرين يذكّرنا ظلم سلاطين المماليك وشهوتهم وطمعهم. هي حكاية رمزية، والراوي عن طريق هذه الرواية ينتقد كلّ حاكم مصريّ (كأحفاد محمد علي باشا، جمال عبد الناصر، حسني مبارك و...) يطمع في المنصب والجاه والسلطة فور استيلائه على كرسيّ السلطة وينسى الشعب الذي يعاني من الجوع والفقر والمرض والفساد.

٧. استحضار التاريخ وتمظهرات الحياة المملوكية^١ في رواية «السائرون نياماً»

إنّ الحدود بين الفنّ والتاريخ حدود متداخلة، فالفنّ مصدر هامّ من مصادر المعرفة التاريخية، كما أنّ التاريخ بأحداثه وظواهره وشخصه وأبطاله منبع للوحي والإلهام في الفنّ. الذهاب إلى زمن بعينه، هو فعل انتقائيّ قصديّ، يختار فيه الكاتب فترة بذاتها، يراها صالحة للتواصل مع راهنه ويجد فيها من الدلالات ما يجعلها قادرة على إضاءة واقعه (الخطيب، ٢٠١٤: ١٧٢-١٧٣). كما يرى البعض أنّ التاريخ الماضي يكون مجموعة من الانتصارات والإخفاقات التي بإمكان الشعوب استخلاص الدروس الثمينة منها لإرساء قواعد حياة أفضل عليها. إحدى طرق استحضار التاريخ في الرواية التاريخية هي استدعاء الوقائع والشخصيات التاريخية وفي هذه الطريقة تتوسّل الرواية بالتاريخ لاستكناه الحاضر فيه (عزوز، د. ت: ٥) وبالطبع إنّ الأديب يختار من شخصيات التاريخ ما يوافق طبيعة الأفكار والقضايا والمهموم التي يريد أن ينقلها إلى المتلقّي (عشري زايد، ١٩٩٧: ١٢٠). بناءً على ما سبق ذكره، إنّ عملية توظيف التاريخ واستحضاره في الرواية، تستدعي وعياً كبيراً من قبل الكاتب بالماضي والحاضر. إنّ سعد مكاوي وجد تشابهاً كثيراً بين قضايا عصره وتجارب الشعب المصريّ في العصر المملوكي، إذاً اختفى وراء التاريخ المملوكي هادفاً تسليط الضوء على القضايا المعاصرة من خلال الماضي حتّى يتمكن من طرح أفكاره بشكل غير مباشر.

١. انظر المقرزي، ١٩٨٧: ج ٢/٢٣٧-٢٤٥ حول المماليك البحرية و الجراكسة.

إنَّ سعد مكاوي في روايته هذه، أخذ من تاريخ العصر المملوكي خاصّة من حياة المماليك البرجية مادة دسمة للتعبير عن حاضره وهو يخاطب عالمه الراهن من خلال الماضي. أخذ الراوي يسرد الظروف السياسية في ذلك العصر بما فيه من استبداد مماليتهم والبيئة الاجتماعية والفساد الأخلاقيّ وبعض الثورات التي فجرها بعض الأفراد، وسيبيّننا البحث فيما يلي:

١-٧. استحضار الأوضاع السياسية في العصر المملوكي

أعلنت بريطانيا حمايتها لمصر أثناء الحرب العالمية الأولى وسيطرت على شؤونها السياسيّة، فأصبحت مصر تخضع للانتداب البريطانيّ، لذلك شرع الشعب المصريّ بالتمرد على الانتداب البريطانيّ داعين إلى مكافحة الاستعمار وقطع أيادي القوى البريطانية من الحكم المصريّ ولكن باءت الحركات الثوريّة بالفشل غالباً. إنَّ سعد مكاوي بوصفه ناقداً، استحضر الأوضاع السياسية للعصر المملوكيّ فاستعان بها لتفسير الحاضر والتعبير عن الجوانب السلبية في السياسة المصرية بغية نقد الحاضر وتغييره. لجأ مكاوي إلى ماضي الشعب المصري للكشف عن سرّ تحلّفهم في الماضي واستمراره في الحاضر بينما يعتقد بأنّ الأخطاء السياسية من قبل الحكام المصريين لا تزال تتكرّر طوال التاريخ. إنّه في روايته هذه يشير إلى عدم القوّة واقتدار الخلفاء في العصر المملوكيّ؛ كان يحكم مصر في ذلك العصر - كعصرنا الراهن - مجموعة من العبيد الذين كانوا يديرون الحكم وقمما يشاؤون وكانت لهم كلمة الفصل، وكان من الواجب على الجميع أن يطيعوا أوامرهم. كما أنّ السلطان "بلباي" كان تحت سيطرة "الدوادار خيرالله بك" أحد المماليك حتى أطلق الجميع عليه لقب السلطان «قل له»:

«ولم يعد في البلاد مملوك ولا حرفوش لا يسمّى بلباي «السلطان قل له!» من

كثرة ما أشار إلى خير بك في كلّ مسألة» (مكاوي، ١٩٩٧: ٤٣).

و"أيوب" أخبر صبيّه "يوسف" بهذا الأمر في حوارهما حينما فرح يوسف من زيارة السلطان:

«وأخذت ذيول الموكب تتوارى مخلّفة وراءها فرحة يوسف الذي استطاع رغم

الزحام أن يلمح شارب السلطان الجديد:

- في وسع صقيرين أن يقفا عليه بكلّ راحة!»

وهبط أيوب صامتاً وامتدّت يده إلى النعش:

«- يا مغفل! صاحب هذا الشارب آله في يد خير بك الدوادر، وهذا هو ما

رشحه لمنصب السلطنة!» (المصدر السابق: ١٥)

وتفسير ذلك أنّ المماليك امتلكوا زمام السلطة السياسية آنذاك والسلاطين كانوا يُخفون أنفسهم عن الشعب المصري ولا يهتمون بأمورهم، إلى درجة فرح الناس فرحة شديدة من رؤيتهم ولو لحظة عابرة كأهم أشياء مقدّسة. قد تبين من النص، أنّ الروائي اعتمد على التعبير الرمزيّ لانتقاده من الاستبعاد السياسي^١ الذي يعاني منه الشعب المصريّ في العقد السادس من القرن العشرين، إنّهُ يستدعي الشعب المصري وحكامهم حتى يغيروا نمط تفكيرهم ونظرتهم والهدف الرئيس من استحضار شخصية السلطان "بلباي" سياسياً هو تحريض الشعب المصريّ وحكامه على مطالبة استقلال مصر عن بريطانيا.

في موقف آخر كان يؤكّد سعد مكاوي على أنّه توالى في القصر المملوكي المطامع لدى البعض بإسقاط كلّ من الآخر ليعتلي العرش كما صوّر الروائيّ هذه الصورة لنا حينما يجلس على الكرسي أكثر من ثلاثة سلاطين طوال شهر واحد؛ إنّ سعد مكاوي يستعين بذلك لتبيين عدم الاستقرار السياسيّ في مصر زمن كتابة هذه الرواية. فقد تقلبت الحكومات بسرعة ومنذ العمل بالدستور سنة ١٩٢٤ حتى قيام ثورة ١٩٥٢، تولّى حكم مصر ٣٨ وزارة، فإذا استبعدت التعديلات الوزارية المؤقتة والطارئة، يمكن القول إنّ ثمة إثني عشر نظاماً وزارياً يزاوّل الحكم في هذه المرحلة (البشري، ١٩٨٧: ١١) وقد تغيّرت أربع حكومات مصرية في سنة ١٩٥٢ نفسها.

إحدى عوامل الضعف السياسي في العصر المملوكي -على أساس الرواية- هي أنّ السلاطين كانوا مشغولين بالجواري والنساء وانغمسوا في الشبهوات والملاهي في قصورهم، وانغمسهم في الشبهوات، كان يمنعهم من الاهتمام بأمور الرعية وكانوا يسقطون دائماً في مصيدة الكيد النسويّ كما يجسّمها لنا الروائيّ حينما مكّرت "جلبهار" وعزلت "بلباي" عن الحكم وأخبرته بعزله (انظر: مكاوي، ١٩٩٧: ١١٠) في الحقيقة مع أنّ الكاتب اختار شخصيات وألفاظاً مملوكية في الرواية مما جعل المخاطب يعيش في ذلك العصر لكن اتّخذ التاريخ قناعاً اختفى وراءه ليتحدّث عمّا يحدث الآن في مصر. إنّهُ يعتقد بأنّ الحكّام في عصرنا نفس الحكّام في العصر المملوكي لكن تغيّرت

١. انظر طارق البشري، ٢٠٠٢: ١٣٦-١٤٣ لمزيد من المعلومات حول الوضع السياسيّ في مصر قبيل ثورة ١٩٥٢.

أسمائهم فقط والشعب المصري الراهن أيضاً نفس الشعب المصري في العصر المملوكي لأنّ كلا الشعبين ناما أعواماً كثيرة في أحضان الحكّام الظالمين وعاشا عيشة ضنكا دون أن يبذلا أيّ جهد لتغيير مصيرهم. إذن هذا الوضع يرشدنا إلى الأوضاع والفساد السياسي الذي أحاط مصر في عهد الملك جمال عبدالناصر والذي جرى بسبب الطابع الديكتاتوري للنظام.

٢-٧. استحضر الأوضاع الاجتماعية في العصر المملوكي

كان صراع طبقيّ في المجتمع المصريّ آنذاك والرواية تمثّل لنا قسمين من الناس: فئة فقيرة محتاجة إلى مساعدات مالية لقضاء حوائجهم الأساسية وهم الذين يتوسّلون إلى الرموز الدينيّة ويدعون الله دائماً حتى ينقذهم من هذه الظروف الصعبة وينزل عليهم السكينة والرحمة؛ إنّ أغلبية الشخصيات الشعبية في الرواية، كانوا من هذا القسم، الشيخة زليخة - تلك المرأة حلقة الرأس - التي تمسك بالقرعة في يدها، والبخور يعبق في منزلها وهي حامية الغرباء والمجازيب في القاهرة، هي أسوة لهذه الفئة وهي التي كان الناس كلّهم يحبونها ويعدونها أهل الله وخواصّه ويتبركون بها. على سبيل المثال، لما كان أيوب وأسرته (صبيه يوسف وزوجته ست الكل)، يتناولون العشاء، جاءت الشيخة طلباً لخبيزة منهم:

«وارتج باب الدهليز فجأة تحت ضربات قوية بالعصا وارتفع في الحارة صوت هادر ينادي في إلحاح خشن: يا أهل الخبيزة!.. يا مؤصدي أبواهم في وجوه أهل الله، يا طعمة جهنم!.. يا ست الكلّ يا عبدة أيوب يا ساكنة التعش!.. يا أيوب يا حاملاً مدى العمر على كتف نعشك! .. افتحوا الأبواب وحضروا الخبيزة واستفتحو بعفو الله!» (المصدر السابق: ٢٦).

هذه الأسرة والشيخة هي نموذج آلاف من الأسر الذين كانوا يعيشون في القاهرة ويقنعون من الحياة بخبز ويرجون اليسر بعد العسر كما ترجو الشيخة "زليخة" انهدام سلطنة "بلباي" ويقول: «إني رأيت ما وراء الموكب! رأيت السجن والسجان وبلباي المجنون في السلاسل» (المصدر السابق: ٢٧) وهذا الحلم هو الذي يجعل من الممكن مواصلة حياة الشعب البائسة لكن بعض الشخصيات كـ "يوسف" وغيره، منذ ابتداء الرواية، يشعرون بخيبة الأمل ولا يرون أي خير وأي فائدة في انتقال الحكومة من سلطان إلى آخر كما يقول يوسف: «كلّما وقع عجل طلع لنا غيره! ما الفائدة؟» (المصدر السابق) يصوّر الزاوي هذا الوضع الفجيع على لسان أحد الفلاحين في محفل جمع الناس فيه حتى يعربوا عن اعتراضهم أمام والي

القاهرة وتلك العصابة المملوكية المستبدة ويعدّوا أنفسهم للثورة:

«... ومن بين الفلاحين الذين في عيونهم لظى محموم ويأس متعلّق بقمم المآذن
التي انقطع منها التكبير، بزغ فلاح طويل الشعر واللحية وصدرة عار مشعر وفي
يده بلطة صدئة ووثب إلى المصطبة:

- أنا وأهلي لم نأكل منذ يوم الجمعة غير رمة حمل ميت قطعناها بهذه البلطة
ونحنهاها، فأعطني رقبة هذا الكلب فالموت بعدها سهل!» (المصدر السابق: ٧٩).

إنّ سعد مكاوي من خلال استحضار تلك الفئة المحتاجة، يتناول الأوضاع الاجتماعية الزاهنة في
مصر احتجاجاً على الأوضاع المعيشية السيئة للشعب المصريّ الذين ذاقوا الفقر والحرمان والبؤس.
فئة أخرى هم الأغنياء الذين كانوا يشترون أراضي كثيرة وينغمسون في الشّهوات والملاهي كما
هو حال الملتزمين من آل حمزة في قرية "ميت جهينة"، الذين هم بجانب المماليك أكملوا سلسلة
الظلم والقهر على أهل القرى واعتقدوا بأنهم ملاك ميت جهينة وأهله عبيدهم كما يعظ "الملتزم"
ابنه "إدريس" ويقول:

«أنت لا تعرف شيئاً... أنت لا يهتمك في الدنيا إلا النسوان.. يجب أن تحضر في
مخك أنّ ميت جهينة لك... المهم هو أنّ هذه الأرض لنا نحن آل حمزة من قديم
الزمن وأنتك من بعدي سيدها وشيخها وملتزمها وجاني عسلها.. المهم هو حقك
في أن تتصرف في هذه القرية تصرف المالك في ملكه» (المصدر السابق: ٨٤-٨٦).

إذاً، الروائي يكشف عن خبايا المجتمع المصري آنذاك ويضيء الجوانب الغامضة من ذلك الصراع
الطبقي وإنه يذهب بنا إلى إدراك الواقع الاجتماعي المصريّ ويسرد لنا بأنّ الطبقة الغنية المظلمة
تقسو وتطغي على الطبقة الفقيرة والمحرومة بجانب العمّال الظالمين وترسخ فكرة التوريث السياسي
لأبناءها كما هو الحال في المجتمع المصريّ الراهن.

إنّ سعد مكاوي، في ابتداء روايته، يصوّر كراهية الشعب للسلّاطين وفي المقابل، انعدام الأمان
الذي يعاني منه الناس حتى لا يستطيع أحد أن يعبر عن هذا السخط الشّعبيّ ويدعو بعضهم البعض
إلى الصّمت خوفاً من رجال الأمن (الجواسيس) وإنقاذاً لحياهم. إنّ استخدام جملة كـ «أمسك
لسانك يا ولد... فالبصّاصون أكثر من الحصى!»، قال أيوب وهو يحرص على خفوت صوته، زفر

أيوب في همسة وهو يتلفت حوله، اخرس فالبصّاصون في كلِّ مكانٍ و...» (المصدر السابق: ١٣-١٨) أو «احترسا في الكلام فإنَّ بعض هؤلاء الذين اندسّوا بيننا من البصّاصين!» (المصدر السابق: ٧٨) التي يستعملها الأشخاص في محاوراتهم اليومية، كلّها تدلّ على اختناق الفضاء والظروف القمعية الحاكمة على الناس من قبل الحكومة ومع أنّ الناس يعلمون بأنّهم سيحاسبون على رضاهم بالظلم وسكوتهم عليه، لكنّهم لا يرون بدأً إلا الصمت أمام هذه العصاة المفترسة المتوحشة.

٣-٧. استحضر المساوي الأخلاقية في العصر المملوكي

الفساد الأخلاقي من المشاكل التي يعاني منها الشعب المصريّ إلى جانب فقرهم نتيجة للفساد السياسيّ طوال التاريخ. يستحضر سعد مكاوي نماذج من الفساد الأخلاقيّ الذي كان شائعاً في الأرياف المصرية في العصر المملوكي؛ إنّه يصوّر للقارئ سلطة الطبقة المترفة في قرية "ميت جهينة" على الفلاحين والفلاحات واعتدائهم على أعراضهم والصورة التي رسمها عن المرأة في المجتمع المملوكي خير مثال للآزمة الأخلاقية التي يعاني منها الشعب المصريّ حالياً. إنّه يجسّم سلطة آل حمزة القهرية على الفلاحين وفلاحات قرية "ميت جهينة"؛ كما يجسّم للقارئ اعتداء الملتزم على "ست العيلة" أم فاطمة، ثم اغتصاب ابنه إدريس لـ "فاطمة" زوجة "غالب" وهكذا كانوا يرثون النساء من جيل إلى جيل لكنهنّ بقين صامتات في مواجهة هذا الظلم والعنف وتدعو بعضهنّ البعض إلى السكوت. إنّ قسوة الرجال وصلت حدّاً جعلت النساء البريحات اللواتي لا حيلة لهنّ أن يتضرعن إلى الله حتى ينقذهنّ من أيدي هذه الكلاب بالموت. عندما اغتُصبت فاطمة، طلبت أمّها منها بأن لا تبوح بسرّها لزوجها وفي النهاية ترجو الله بأن يقطع خلفه البنات من وجه الدنيا:

«قالت الأمّ في حزمها الهادئ: لا تقولي لغالب؛ والزومي حدودنا!

- حاضر يا أمه.. لا بنات زمنك أحسن ولا بنات زمني، البنات تطلع لأتمها!

كانت أمّها كلّها ترنجف وعيناها تبرقان ويدها الضامرة الشديدة السمرة ترتعد أمام وجهها:

١. إنّ المماليك كانوا ينظرون إلى طبقات الشعب نظرة ازدراء و كانوا يطلقون على العامة كلمة «الفلاحين» و هم يقصدون بها المهانة و الاحتقار (بكري، ١٩٨٠: ٤٨).

- ياربّ اقطع خلفه البنات من وجه الدنيا! .. اقطع ياربّ خلفه البنات...»
(المصدر السابق: ١٢٩).

إنّ آل حمزة - أي تلك الضباع الإدريسية- كانوا قد أغرقوا في اللهو والترف والمجون وكانوا يطاردون بنات القرية حتى بعد زواجهم ويفتخرون بعملهم هذا، كما يكشف الملتزم عن سرّه عند ابنه "إدريس" ليلة زواج "فاطمة" - الإمراة التي كان إدريس يحبّها حبّاً جمّاً- بنت "سليمان أبوطاسة" مع الفلاح الفقير "غالب" ويحثّه على ارتكاب العهر ويقول:

«أبوك في شبابه لم تستعص عليه بنت ولا إمراة في هذا العب كله! أم فاطمة نفسها ..
ست العيلة.. عندما لم تكن منفرة كما هي الآن بل صبية في حلاوة بنتها فاطمة..
كانت لي قبل زواجها من أبوطاسة وبعد الزواج سنين طويلة...» (المصدر السابق: ١٥).

ينتقد سعد مكاي من خلال روايته الظلم الاقتصاديّ في المجتمع المصري الذي يؤدّي إلى الفساد والانحيار الأخلاقيّ ويعتبر الفساد الأخلاقيّ مرضاً حقيقياً يهدّد الثقافة المصريّة طوال تاريخها. إنّه ينتقد انتقاداً لاذعاً من الفساد الذي اجتاحت بلد مصر في عهد جمال عبد الناصر، العصر الذي يعتبره التّاقدون «بداية الفساد الأعظم الذي اجتاحت البلاد في فترة زمنية قصيرة وهو أول من أباح في مصر كافة أساليب خداع وتضليل الشعب المصري والعربي والإسلامي، بنشر الكذب والخداع والتضليل» (انظر: عرفه، ٢٠١٧: ١).

٤-٧. استحضر استبداد المماليك

هناك في عصر المماليك البرجية آلاف من المسجونين الأبرياء داخل أبراج القلعة يعيشون عيشة ضنكا وبعضهم كانوا في السّجن أكثر من ثلاثين سنة دون أيّ ذنب، والسلّاطين المستبدون يذبجون بعضهم ويضربون عنقهم. يصوّر الروائي هذه الحالة في مجلس السلطان "بلباي" مع المساجين وبيان المصير الذي يبتلّى به السّجّين "علاء الدّين":

«وتأتل بلباي هنزله المفزع وسلاسله الغليظة وعجب لهدوئه بين يديه وقال: ...
ما اسمك يا رجل وما حكايك؟»

- أنا الشيخ علاء الدين، وقد قلت رأيي في السلطان جقمق بعد صلاة الجمعة في صحن المسجد الأكبر فجاء بي رأيي إلى هذا المكان، وكان ذلك في يوم من أيام الشتاء في سنة ١٤٣٨ وكان عمري أربعاً وعشرين سنة، وهذه هي حكايتي... ففكر بلباي لحظة قبل أن يتكلم: فأنت الآن في الرابعة والخمسين يا شيخ علاء الدين...» (مكاوي، ١٩٩٧: ٢١).

وطلب منه السلطان أن يسجد له لكن الشيخ رفض ولم يسجد له وقاوم حتى غضب "بلبای" وذبحه بيده أمام المماليك والمساجين وهكذا مع قتل الأبرياء والضعفاء توهم بأنه ذو قدرة واسعة؛

«ثم انقضّ عليهم في نوبة هياجه وسيفه في يده يقطر بدم الشيخ:

- ما أنا بضبع يا أبناء الكلاب بل سبع هذا البر إن كنتم لا تعلمون!» (المصدر السابق: ٢٢).

على أيّ حال، إنّ السلاطين في العصر المملوكي يتلذذون بقتل الآخرين كما يعترف أحد السلاطين بطبيعته الوحشية هذه بصراحة:

«ما ألدها ساعة عندما ترى أمامك رجلاً خائفاً على عنقه! ... إني أحبّ مثل

هذه الساعة!» (المصدر السابق: ٦٦).

ژانّ سعد مكاوي يزيح الستار عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم في المجتمع المصري ويطلب أبناء شعبه بالنهوض والبعث وينتقد انتقاداً لاذعاً من تدخّل السلطات البريطانية وسياسات الحكام الاستبدادية والسيطرة الغربية على بلده.

من أشنع ما فعله المماليك هو خطفهم النساء البريئات؛ إنهم كانوا ينهبون الدكاكين ويضحكون لرؤية الدم على أسنة سيوفهم وإذا قاومهم أحد، كانوا يخطفون النساء. إنّ الروائيّ يمثّل لنا هذه الصورة عندما هاجم المماليك في حمام الخيامية في "حارة الحمام" وخطفوا "عزة" أخت خالد^١ وهكذا بلغ الاستبداد منتهاه وانتشرت الاضطرابات في كلّ مكان حتى لم تعد أية امرأة تجرأ أن تذهب إلى حمام السوق. إنّ "عزة" تصبح رمزاً لأرض مصر التي يغتصبها المستعمرون وعملائهم والروائي يدعو إخوتها لتحريرها.

١. انظر: مكاوي، ١٩٩٧: ٧٤-٧٥

٥-٧. استحضر الثورات الشعبية في العصر المملوكي

يحكي السارد في هذه الرواية أنّ أغلبية الناس كانوا يخافون من السلطة الحاكمة مع استيائهم منها ويفترون من القيام ضدّهم ولو أنّ هناك احتجاجات وصرخات ضعيفة عليهم من بعض الشخصيات الشعبية لكنّها سرعان ما قمعت في أسوأ الحالات. إنّ الشبيخة "زليخة" دائماً بعبارتها التي تدلّ على الشكوى، تعبّر عن الآمها ومعاناتها ودمّها وعتابها للدّهر وتحرض الشعب للانتفاضة؛ إنّها كلّما ترى يوسف وأيوب و... تقرأ آية ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (يوسف: ٧) لتشجيعهم على النضال.

في الحقيقة، لم تكن هناك ثورات شعبية بمعناها الحقيقي بل كانت اجتماعات وقيام ثورات بسيطة من بعض الأبطال أمام هؤلاء المستبدين احتجاجاً على تدهور الأوضاع المعيشية؛ إنّ خطف "عزة" -أخت خالد- من الحمام، كانت قوّة محرّكة أضرمت نار الانتفاضة في قلوب الثائرين وحثّت خالداً وأصدقائه على القيام بجديّ حتى كان خالد يقول للذين دعوه إلى الهدوء بأسلوب إستفهام إنكاريّ:

«تقولون لي اهدأ يا رجال وأختي البكر في قبضة حيوان خسيس حملها من الحمام عارية؟ آه... لا بدّ أن أشرب من دم أولاد الزنا ولا بدّ من عزة سالمة العرض! ...
أمّا أنا يا رفاقي سأظنّ أقتل وأقتل وأدعو إلى القتل حتى ألقى وجه الموت... أنا منذ اليوم قاتل» (مكاوي، ١٩٩٧: ٧٥-٨٢).

كان خطف "عزة" الشرارة التي أشعلت الصراع الكامن بين الشعب والسلطة في القاهرة. لقد وسع المؤلف من دلالة الشخصية لتأخذ بُعداً رمزياً واسعاً إذ تصير عزة معادلة لمصر كلّها من شماله إلى جنوبه (غنيم، ٢٠١٢: ٩) لكنّ هذه الثورات البسيطة في القاهرة لم تصل إلى نتيجة مُرضية بل أدّت إلى اختفاء خالد والثائرين ثمّ هروبهم إلى ميت جهينة حتى يخطّطوا لإسقاط النظام لأنّهم يعتقدون بأنّ الفسوق يكون في المدينة والريف على حدّ سواء والأرض المصرية تصبّ خيراتها في أفواه معدودة والبؤس مبعثر في كلا المكانين المدينة والريف.

هناك في نهاية الرواية، ضاقت الدنيا كلّها في وجه مُجدّ ابن فاطمة، حينما علم بأنّ أمّه وأمّ معشوقته "نور" كلتاها أصبحتا من متاع الكلاب الإدريسية ونور هي أخته وكلاهما ولدان لأب واحد. بعد أن فشلت آماله فكّر بجديّ في الانتقام وصمّم أن يضرم ناراً في قلب كلّ من نزع الراحة عن قلب أمّه ونساء "ميت جهينة"

إذن اشترى فأساً وذهب للتأثر. هذا الانتهاك لحقوق النساء والعامل الاقتصادي^١ والاعتقاد بأنه لا يكون مسلماً من يصبر على الضنك والمظالم، كل هذه العوامل دعت مُجداً وخالداً وأهالي ميت جهينة إلى الثورة على الظروف الحاكمة، إنهم أعلنوا العصيان وساروا إلى مقاتلة أمراء سلسلة القهر والظلم والذين كانوا يحاولون قمعهم طوال التاريخ. إن التوار في نهاية المطاف، اجتمعوا في الطاحون، المكان الذي يرمز لاجتماع الناشرين، وهذا هو أول انتفاضة شارك فيها كثير من النساء والشيوخ والأطفال والشباب من أهالي ميت جهينة. إن المتظاهرين سعوا أن يتخلصوا من الخوف الذي كان قد ملأ أنفسهم سنين عديدة والكل أرادوا إسقاط النظام بإرادة الله؛ هذا يشير إلى أن سعد مكاوي علاوة على استحضاره التراث الماضي والأوضاع الفاسدة للحكام العرب في العصر المملوكي، يريد أن يبيّن جسراً بين التاريخ الماضي والتاريخ الجديد على أنه هذا التاريخ يتكرر وحالياً الناس في البلاد العربية يريدون إسقاط حكمايتهم الفاسدين المشتغلين باللهو والاستثمار والقهر. إن سعد مكاوي في الفصل العشرين من الجزء الثالث للرواية، يصور هذه الثورة في اتجاه صوامع المتمرّم ويقول:

«أصوات، أصوات ترخ الأرض من كل صوب، راعلة.. لم ينتظروا حتى يرد على إعلان الحرب الذي جاءه مضرراً بدم ابنه.. أعادوه إليه جنة مقلوبة على الحصان، كما لو كانوا واثقين من انشغال القاهرة بمرح السلطان قانصوه متخفياً في زي النساء، وبسطوا المماليك على البيوت والأسواق إشهاراً لسخطهم على تأخر حكمايتهم.. ولن ينتظروا وقد زاد عددهم بورود الغريباء الذين جاءته عيونهم بأخبارهم... والأرض على مدى الأفق تشغي تحت شمس سبتمبر بناس كالتمل... أخفى إدريس رأسه التي كانت ظاهرة فوق السبور من ناحيته الشرقية وتطلع من إحدى طاقاته المربعة الصغيرة فخيّل إليه أنه يحلم.. هذه الفأس التي تنعكس الشمس على سننها الجديدة في ومضات براق، ترتفع بها يد مُجد ابن فاطمة!.. مُجد! مُجد! وفاطمة نفسها في يدها منجل أبتّر وكتفها في كتف ابنها!.. ومد وجزر من رجال ونساء من كل الأعمار...» (مكاوي، ١٩٩٧: ٣١٠-٣١٢).

إذن، في نهاية المطاف وفي الجزء الآخر من الرواية، توحد الشعب وأثبتوا أنّ الوحدة مفتاح رئيسي لنجاح الشعب وفي النهاية أدركوا بأن يصحوا متأخراً خيراً من أن يسيروا نائمين حتى الأبد. نستخلص مما سبق أنّ الروائي يلجأ إلى أحداث تاريخ المماليك لتجاوز الواقع الزاهن وبناء واقع

١. يعدّ الصّغط الاقتصادي بمثابة أول أسباب الانفجار الثوري (ريفاز، ٢٠٠٥: ١٩٤).

جديد يستفيد من تجارب الماضي وينبّه إلى الاستفادة من أخطاء الماضي وعدم تكرارها في الحاضر. إنّه استعان بالتاريخ ليقدم الدور السلبي للمستعمرين والأجانب في مجتمعه. إنّ الكاتب باستحضاره تمظهرات الحياة المملوكية يوجّه انتقاداً للفساد الإداري والسياسي والمالي الذي اجتاحت مصر خلال فترة زمنية ما بين سنين ١٩٥٠ حتى ١٩٧٠ نتيجة لاستبداد النظام وديكتاتوريته خاصة في عصر الملك جمال عبد الناصر الذي يعتقد البعض بأنّه «أول من تبنى الفكر الديكتاتوري من خلال جرائم ملاحقة ومطاردة وإبادة المعارضين وخاصة الإخوان المسلمين الذين شاركوه ثورته، فبدلاً من أن يفني بوعده معهم ألقى بهم في السجون والمعتقلات المصرية بلا وجه حق» (عرفه، ٢٠١٧: ١).

٨. النتيجة

توصّلنا من خلال هذا البحث إلى النتائج التالية: إنّ الرواية التاريخية "الساثرون نياماً" من أفضل الروايات في العالم العربيّ وتاريخ الروايات المصرية، التي تحيي الماضي إثارة للحاضر. إنّ الروائي يأخذ من التاريخ مادة خصبة لعمله الفنيّ ويخاطب الحاضر من خلال الماضي. الوظيفة المعرفية التي تأخذها الرواية على عاتقها هي إعطاء المعرفة التاريخية من العصر المملوكي للقارئ المصري وتقديم معلومات كاملة عن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية للعصر نفسه. إنّه يلقّن الشعب المصري الراهن بأنّ البلد الذي يقوده الاستبداد هو بلد لا يستحقّ العيش فيه، إذن، من خلال هذه المعرفة الروائية يحرك الناثرين المصريين وينبّههم حتى يمنعوا من تكرار التاريخ وينقذوا بلادهم المعاصرة من أيدي الطغاة والحكام المستبدين الظالمين.

يتطرق سعد مكاوي إلى الأوضاع السياسية في العصر المملوكي ويزيح الستار عن الضعف السياسيّ في تلك الفترة التاريخية من خلال شخصية "بلباي" و"دوادار خيرالله بك" و"جلبهار". إنّه ينتقد عدم الاقتدار السياسي من قبل بعض الحكام المصريين وسيطرة الأجانب عليهم وعدم اهتمامهم بأمور الشعب وعدم الاستقرار السياسي والاستبعاد السياسي الذي يعاني منه الشعب المصري طوال التاريخ. إنّه يستحضر الأوضاع الاجتماعية في العصر المملوكي حتى يستعين بها للتعبير عن الواقع الاجتماعي، إنّ سعد مكاوي يختفي وراء تلك الأوضاع للهجوم على الصّراع الطبقيّ والفقر وانعدام الأمان الذي يعاني منه الشعب المصري في القرن العشرين ويشكو عدم العدالة الاجتماعية في بلده من خلال شخصية "زليخة" و"ست الكل" و"أيوب" و"آل الحمزة" في الرواية.

من المسائل الأخلاقية التي يتناولها سعد مكاي في روايته هي الانحياز الأخلاقي في الطبقة المترفة خاصة وأزمة الأخلاق في المجتمع المصري عامة عن طريق شخصية "الملتزم" و"إدريس" ويعتقد بأنّ الظلم الاقتصاديّ هو السبب الرئيس لهذه الأزمة. إنّه أيضاً يصوّر المرأة المصرية في الطبقة الفقيرة التي أصبحت ضحية لهذه الأزمات عن طريق شخصية "ستّ العيلة" و"فاطمة" ويزيح الستار عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم في المجتمع المصريّ وينتقد سيطرة السلطات البريطانية على بلده. السرد التاريخي في هذه الرواية، يجعلنا نرى تشابهاً كثيراً بين حياة المصريين في العصر الراهن والعصر المملوكي ممّا نشاهد في العصرين من ظلم وفساد وسرقة؛ ويعتقد الراوي بأنّ الحكّام هم الذين نكبوا بهذا الشعب المصريّ المظلوم طوال التاريخ.

ممّا يجدر بالإشارة إنّ الروائيّ نجح إلى حدّ كبير في تحقيق أهدافه من كتابة الرواية وجعل أحداث روايته في خدمة التعبير عمّا يريد أن ينقله إلى المتلقّي. إنّ السارد في نهاية الرواية يغضب على عدم الوحدة بين الشعب المصريّ ويدعوهم إلى الوحدة التي هي مفتاح لنجاح الشعب ويعتقد بأنّهم إذا أفأقوا متأخرين خيرٌ من أن يسيروا نائمين حتى الأبد.

المصادر

١) كتب

القرآن الكريم

- البشري، طارق (١٩٨٧)، الديمقراطية و نظام ٢٣ يوليو (١٩٥٢-١٩٧٠)، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربيّة، الطبعة الأولى.
- البشري، طارق (٢٠٠٢)، الحركة السياسية في مصر، القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثانية.
- بكري، شيخ أمين (١٩٨٠)، مطالعات في الشعر المملوكي و العثماني، بيروت: دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثالثة.
- الجبوري، كامل سلمان (٢٠٠٣)، معجم الأدباء (من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م)، الجزء الثالث، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
- زعباط، سعيد (٢٠١١)، رواية كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج بين الحقيقة التاريخية و التخيل الروائي، أطروحة الماجستير في الأدب الجزائري المعاصر بإشراف عبدالسلام صحراوي، قسنطينة: جامعة متوري؛ قسم اللغة العربية و آدابها.
- زيتوني، لطيف (٢٠٠٢)، معجم مصطلحات نقد الرواية، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون - دار النهار للنشر.
- عشري زايد، على (١٩٩٧)، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة: دارالفكر العربي.
- لوكاش، جورج (١٩٨٦)، الرواية التاريخية، ترجمة صالح جواد الكاظم، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية.

تمظهرات الحياة المملوكية في رواية «السائرون نياماً» لسعد مكاي (دراسة نقدية) مريم رحمتي تركاشوند

مرتاض، عبدالمالك (١٩٩٨)، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، الكويت: من منشورات عالم المعرفة.

المقريري، تقي الدّين ابوالعبّاس أحمد بن علي (١٩٨٧)، المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار (الخطط المقريرية)، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الثانية.

مكاي، سعد (١٩٩٧)، السائرون نياماً، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة.

المغوث، سامي عبدالله (٢٠١٣)، أطلس تاريخ العصر المملوكي، الرياض: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى.

هيكل، أحمد (١٩٩٤)، تطوّر الأدب الحديث في مصر (من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية)، القاهرة: دار المعارف، الطبعة السادسة.

٢) الدوريات

بالنور، سليمة (د. ت)، «الرواية التاريخية: بين التأسيس والصورورة»، مجلة «عود الند» (المجلة الثقافية الشهرية)، السنة ٨، العدد ٩٣، صص ٨٤-٩٥.

الخطيب، أحمد (٢٠١٤)، «تسريد التاريخ و شعرة اللّغة في رواية «ارتعش القلب عشقا... الحلاج» لعبّاس أرنافوط»، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد ٢٢، العدد الأول، غزة: شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية، صص ١٩٩-٢٢٧.

دواره، فؤاد (١٩٦٤)، «الورقة الأخيرة: السائرون نياماً»، طبع في المجلة، العدد ١١٧، لندن: الشركة السعودية للأبحاث والنشر، صص ١٣٥-١٣٦.

ريفاز، فرانسواز (٢٠٠٥)، «كتابة التاريخ بين فنّ السرد و العلوم الدّقيقة»، ترجمة باتسي جمال الدّين، مجلة فصول، العدد ٦٧، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، صص ١٩٠-١٩٨.

عزوز، حسن (د. ت)، «من التعلّق المعرفي التاريخي إلى الرؤيا الاستشراقية (رؤيا تخييلة لرواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج)»، مجلة جامعة وادي يوسف، صص ١-٢١.

الكندي، محسن (١٩٩٧)، قراءة تحليلية لمرجعيات منهج النقد التاريخي، مجلة نزوى، العدد ١١، عمان: مؤسسة عمان للصّحافة والنّشر والإعلان، صص ٩٦-١٠١.

٣) مواقع الإلكترونية

عرفه، مُجّد عاطف أحمد (٢٠١٧)، «عبد الناصر كما لا تعرفونه»، موقع الجزيرة.

<http://blogs.aljazeera.net/blogs/2017/9/21/>

غنيم، مُجّد عبدالحليم (٢٠١٢)، «صورة مصر في السرد الروائي المعاصر (دراسة في نماذج مختارة)»، موقع القصة العربية.

<http://www.arabicstory.net/forum/index.php?showtopic=5719>

المصاورة، ثامر إبراهيم (٢٠١٠)، المنهج التاريخي، موقع ديوان العرب، رام الله: المؤسسة الفلسطينية للنشر.

http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=٢٢٦٦٣

نقد و بررسی تجلیات جامعه مملوکی در رمان

«السائرون نیاماً» اثر «سعد مكاوی»

مریم رحمتی ترکاشوند*

استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه رازی

چکیده

«سعد مكاوی» در به تصویر کشیدن درد و رنج جامعه مصری در عصر ممالیک و بیان مشکلات سیاسی، اقتصادی و اجتماعی آن دوران در رمان مشهور خود «السائرون نیاماً» درخشیده است؛ همان رمانی که به صورت هنری، ماهیت زندگی انسان در آن زمان را با جزئیاتش نگاشته است. این روایت داستانی با دربرداشتن اطلاعات تاریخی، خواننده را با تاریخ مصر در عصر مملوکی آشنا می‌سازد تا بدین وسیله محتوای رمان را بفهمد. «سعد مكاوی» مخاطبان رمانش را به تأثیرپذیری از گذشته فرامی‌خواند تا آن‌ها را ارشاد کند و به سوی پیشرفت سوق دهد؛ از این رهگذر، مقاله حاضر می‌کوشد تا با روش تاریخی و توصیفی - تحلیلی و با هدف پرده برداشتن از دانش تاریخی پنهان در رمان «السائرون نیاماً»، به بررسی فراخوانی تاریخ در این رمان بپردازد. مهم‌ترین یافته این پژوهش آن است که سعد مكاوی در رمان خود، از طریق فهم راز و رمزهای شکست اقوام پیشین مصر، در پی یافتن عوامل عقب‌افتادگی و شکست مصر کنونی می‌گردد و بر این باور است که ریشه‌های عقب‌ماندگی جامعه مصری و تنزل اخلاقی و استبداد حاکم بر آن، در همان عصری نهفته است که مملوکیان در مصر حکمرانی می‌کردند. نویسنده برای نشان‌دادن این موضوع، به کالبدشکافی جامعه مصر مملوکی در قالب رمان پرداخته است. از جمله مهم‌ترین علل شکست مصریان در طول تاریخ، به عقیده مكاوی، استبداد حاکمان مصری به‌ویژه در زمان ممالیک و وجود تفرقه و گسستگی میان مصریان بوده که به تدریج این عوامل زمینه‌ساز پیدایش اوضاع کنونی کشور مصر گردیده است.

کلیدواژه‌ها: رمان تاریخی؛ فراخوانی تاریخ؛ عصر مملوکی در مصر؛ «سعد مكاوی»؛ «السائرون نیاماً».